حدود استخدام المدخل الايكولوجي

نحاول فيما يلي أن نقدم عدداً من التصورات المختلفة حول طبيعة الايكولوجيا البشرية وعلاقتها ببعض العلوم الإنسانية وتفيد مناقشة هذه التصورات المختلفة – التي استخلصناها من التراث الإيكولوجي المعاصر- في تحديد وجهة النظر السوسيولوجية حول طبيعة هذا الفرع من المعرفة ، وعلاقته بالمكونات الأخرى للنظرية السوسيولوجية العامة .

الايكولوجيا البشرية كتركيب جامع للعلوم الإنسانية

تصور ج و بيوز J.W.Bews الايكولوجيا البشرية على أنها تركيب شامل ، يوجد أو يجمع بين كل العلوم الإنسانية المعروفة ،في كتاب له بعنوان (الإيكولوجيا البشرية) سنة ١٩٣٥م

فالايكولوجيا البشرية وان كانت تركز أحياناً – في نظر بيوز- على دراسة البيئة في ذاتها ، أو تعني أحيانا أخرى بدراسة الإنسان في ذاته أو تهتم في بعض الأحيان بدراسة التفاعل القائم بين كل من الإنسان والبيئة

إلا أنها دائما أبداً تميل إلى النظرة إلى (مثلث البيئة ، والوظيفة ، والكائن الحي) على انه كل واحد متكامل ومحدد ومن ثم فان الايكولوجيا البشرية ، عند بيوز ، عبارة عن وعاء معرفي أكثر شمولاً يستوعب بداخله كل العلوم التي تعنى بدراسة الكائن الإنساني وبيئته والعلاقة المتبادلة بينهما ، كالتشريح والانثروبولوجيا وعلم الأجنة والجغرافيا والجيولوجيا والفسيولوجيا وعلم الاجتماع

وغير ذلك من فروع المعرفة العلمية التي تعنى بدراسة أي طرف من أطراف مثلث البيئة والوظيفة والكائن الحي ،غير أننا لا نتفق تماماً مع تصور بيوز- رغم ما له من وجاهة – ونميل في الوقت نفسه إلى استخدام المصطلح استخداماً أكثر تحديداً للايكولوجيا كمجال متخصص من الدراسة العلمية ، ولنا من المبررات ما يكفي لتدعيم تصورنا هذا منها :

١-أن ايكولوجيا النبات والحيوان – وهي الإطار المعرفي الأوسع الذي تحدد من خلاله المعنى العام للمصطلح (ايكولوجيا) – ينظر إليهما اليوم ، وبصفة قاطعة ، على أنهما فرعان متخصصان من فروع المعرفة العلمية.

٢-أن الاستخدام التقليدي للمصطلح- كما قدمته أمهات المعاجم والفهارس العلمية- يحدد الإيكولوجيا كفرع متخصص من فروع علم البيولوجيا.

٣- أن الاستخدام الشائع في تراث البيولوجيا والجغرافيا وعلم الاجتماع يتصور الايكولوجيا البشرية على أنها مجال متخصص للدراسة والبحث العلمي.

ونحن نعتقد انه من الأفضل لدارس علم الاجتماع أن يستخدم مصطلح الايكولوجيا البشرية بمعنى أكثر تحديداً للإشارة إلى مجال متخصص من مجالات الدراسة والبحث العلمي.

الايكولوجيا البشرية كتخصص مطابق تماما للجغرافيا البشرية

أكد نفر من علماء الجغرافيا المعاصرين – وبخاصة الجغرافيا البشرية- ان هناك تطابقاً واضحاً ومؤكدا بين الايكولوجيا البشرية ومجال دراستهم وقد تابعوا في ذلك تصور بعض الرواد الأوائل في الجغرافيا البشرية مثل هـ.باروز H.Barrows الذي حصر مجال البحث الجغرافي وبخاصة في جانبه الإنساني ، في معالجة العلاقات القائمة بين الإنسان والبيئة ،ومثل س. ل. هوايت C.L.White وج . رينر G.T.Renner اللذان أعلنا انه (أينما يطور الجنس البشري علاقات – من أي نوع- بالبيئة الطبيعية فان دراسة هذه العلاقات تمثل موضوعاً أساسياً لعلمي الجغرافيا والايكولوجيا البشرية)

ويستطيع من يطلع على هذه الكتابات ، وعلى عناصر التراث التقليدي في الجغرافيا البشرية أن يقف صراحة على تصور الرواد الأوائل في هذا المجال الإنساني، فانه يشير إلى مجال البحث في الجغرافيا البشرية ، وان الجغرافيا البشرية ليست في نهاية المطاف الا الايكولوجيا بشرية.

وفي الوقت الذي تابع فيه بعض علماء الإجتماع الأوائل من أمثال ف. هاوس F.N.House هذا التصور السابق ، حرص البعض الأخر على وضع الايكولوجيا البشرية خارج مجال البحث الجغرافي تماماً

فقد ذهب بارك R.Park مثلاً إلى أنه (لما كانت الايكولوجيا البشرية لا تتطابق مع الدراسات الجغرافيا والاقتصادية ، فإن على المرء أن يتبنى- كفرض على الأقل- فكرة أنها ليست هذا ولا ذاك ، وأنها مجال للبحث والدراسة مستقل تمام الاستقلال عن الجغرافيا وعلم الاقتصاد

وفي نفس الوقت حاول ماكينزي- الذي أعلن استقلال الايكولوجيا البشرية عن الجغرافيا- أن يحدد خصائص كل من العلمين كمدخلين متمايزين لدراسة المجتمعات المحلية

وتتمثل نقطة الخلاف بين موقف علماء الاجتماع والجغرافيا البشرية في أن كلا من الفريقين ينظر إلى طبيعة العلم من منظور مختلف تماماً

فمن ناحية ، يلاحظ انه رغم ما يؤكده علماء الجغرافيا البشرية- وعلى المستوى التعريف النظري- من وجود تطابق تام بين مجال البحث الجغرافي والايكولوجي نجدهم لا يلتزمون بهذا التعريف في ممارساتهم الامبيريقية

، حيث نجد أن كثيراً من أمهات الكتب الجغرافية قد أغفلت عن عمد بعض المجالات البحثية الهامة التي يعتبرها علماء الاجتماع حجر زاوية في المنظور السوسيولوجي للايكولوجيا البشرية

، هذا في الوقت الذي تعد فيه كثيراً من الدراسات السوسيولوجية – والتي اهتمت بمعالجة البيئة الخارجية كوسط تتم في إطاره الأشكال المختلفة للتفاعل الاجتماعي- دراسات ايكولوجية بحتة ، وفقا للتعريفات النظرية التي وضعها الجغرافيون أنفسهم ، والنتيجة التي نخلص إليها في هذا الصدد ، انه طالما أن مجال الدراسة التقليدي في الجغرافيا البشرية لا يستوعب كل المشكلات التي ترتبط بعلاقات الإنسان بالبيئة ، فان من القصور بمكان ، أن ندعي بان كلاً من الجغرافيا والايكولوجيا البشرية مجال واحد للبحث والدراسة .

الايكولوجيا كفرع من فروع علم الاجتماع

لاقى اعتبار الايكولوجيا فرعاً من فروع علم الاجتماع قبولاً واسعاً لدى عدد كبير من علماء الاجتماع ، ولعل من أهم الشواهد الدالة على ذلك ما يأتي:

١-إنشاء قسم خاص للايكولوجيا البشرية يتبع المنظمة الأمريكية لعلم الاجتماع

٢- وضع الايكولوجيا البشرية كمدخل أساسي من مداخل النظرية السوسيولوجية في كثير من المقالات وأوراق العمل التي عنيت بتحديد مجالات الدراسة في علم الاجتماع ، أو تعيين نطاق النظرية السوسولوجية ومداخلها المختلفة.

٣-احتواء أمهات الكتب والمراجع السوسيولوجية على فصول أو أجزاء مستقلة ، خصصت برمتها للايكولوجيا البشرية.

٤-احتواء التراث السوسيولوجي المعاصر ، وقوائم مشروعات البحوث على الايكولوجيا البشرية كمجال خصب من مجالات البحث المتاحة أمام دراسي علم الاجتماع

٥-تخصيص قدر لا يستهان به من المحاضرات التي يلقيها بعض علماء الاجتماع تحت عنوان (الايكولوجيا البشرية)

٦-الإنكار الصريح من جانب بعض مشاهير علماء الاجتماع- من أمثال بارك وماكينزي- لفكرة توحد الايكولوجيا بأي من التخصصات الأكاديمية التقليدية والنظرة إليها – ولو على نحو ضمني- على أنها فرع من فروع علم الاجتماع المعروفة.

ويؤكد أصحاب هذا التصور السابق ضرورة أن يهتم الباحث السوسيولوجي بدراسة العلاقات البشرية المتبادلة ، كمحور ارتكاز في كل الدراسات الايكولوجية فالايكولوجي في نظر بارك ، يعني بدراسة المجتمع المحلي وليس بدراسة الفرد في ذاته ، كما انه لا يهتم بعلاقة الإنسان بالأرض بقدر اهتمامه بعلاقة الإنسان بغيره من بني جنسه ويتابع ماكينزي نفس التصور ، عندما يوضح اختلاف الايكولوجيا البشرية عن الديموجرافيا والجغرافيا البشرية، في أنها لا تتخذ من الجموع السكانية، ولا من الموطن الفيزيقي ، ولا من المنطقة الثقافية ، موضوعاً لها وإنما تعني فقط بالعلاقات المتبادلة بين الناس.

وعلى أية حال ، فقد ترددت فكرة أن الإيكولوجيا تركز على دراسة العلاقات البشرية المتبادلة ، في أجزاء عديدة من جوانب التراث السوسيولوجي

ذلك أن محاولة وصف الايكولوجيا البشرية بأنها (دراسة للمجتمع المحلي) كما هو الحال عند ميلا اليهان M.ALihan وهيللر Hiller

أو على (أنها دراسة للمناطق الطبيعية) كما ذهب ماكيرجي Mukerjee ،

أو على أنها تحليل للمفهوم الايكولوجي للوضع أو المكانة (عند ماكينزي)

كانت كلها محاولات تضمنت التأكيد على دراسة العلاقة البشرية ، سواء داخل التنظيم المعيشي أو داخل الشبكة المعقدة للنظم الموزعة توزيعاً مكانياً

كما أن تأكيد بعض الباحثين على مفاهيم المنافسة ، والتفاعل الايكولوجي ، والتكافل ، كمفاهيم أساسية في الدراسة الايكولوجية ، يحمل بين طياته تأكيداً واضحاً وصريحاً ، على العلاقات البشرية المتبادلة

، هذا إلى جانب أن عدداً من علماء الاجتماع قد أعلن صراحة أن الايكولوجيا البشرية تعني في المقام الأول بدارسة: أشكال العلاقات الزمانية والمكانية التي تنجم عن تأثيرات البيئة والكائنات والنظم الإنسانية التي ترتبط فيما بينها ارتباطاً متبادلاً ، وبتأثير البيئة على التجمعات الإنسانية

ونتيجة لما تقدم : يذهب البعض إلى حد القول بأنه ، إذا كان علم الاجتماع هو في الأساس دراسة لعمليات التفاعل الأساسية ولأشكال العلاقات الإنسانية المتبادلة ،

وإذا كانت الايكولوجيا البشرية تعنى بدراسة هذا النوع من العلاقات والعمليات ، فانه من المنطقي اعتبارها فرعاً متخصصاً داخل الإطار الأوسع لعلم الاجتماع ،

غير أن الموقف – في نظرنا- ليس بهذا القدر من البساطة، إذا أن هذا التحديد الضيق لمجال البحث الايكولوجي قد لا يجد له مبرراً

كما أن إمعان النظر – بحيادية وموضوعية- في موضوع الايكولوجيا ومجالها يسلم إلى عدد من المبررات التي تجعل الجغرافيا البشرية – وهي التي تعنى أساسا بدراسة مشكلات علاقة الإنسان بالبيئة أحق بكثير من علم الاجتماع في احتوائها الشامل لمجال البحث الايكولوجي

ولذلك نتصور انه ما لم يتسع مجال علم الاجتماع ليستوعب كل ما تعنى به الجغرافيا البشرية وأجزاء كبيرة مما تعنى بها البيولوجيا وعلم الاقتصاد، فإن أصحاب هذا التصور لن يجدوا الأساس الصلب الذي يدعم دعواهم السابقة لانتماء الايكولوجيا البشرية لعلم الاجتماع كفرع من فروعه الأساسية.

<u>الايكولوجيا البشرية مجال هامشي للبحث</u>

وقد يبدو هذا التصور – الذي لم يظهر بدرجة كافية من الوضوح في التراث الايكولوجي- أكثر ملائمة ومعقولية من التصورات الثلاثة السابقة

وتقع الايكولوجيا البشرية ، وفقاً لهذا التصور الأخير ، في مفترق الطرق بين المجالات العلمية والأكاديمية التقليدية ، وبخاصة بين البيولوجيا والجغرافيا وعلم الاجتماع ،

كما تشتمل في الوقت ذاته على جوانب محددة من كل منها على حدة

ولا تمثل الايكولوجيا البشرية هنا تركيباً جامعاً ، كما تصور بيوز من قبل ، بل تغطي فقط علاقة أكثر تحديداً لمقومات الثالوث الذي تصوره بيوز (البيئة – الوظيفة- الكائن الحي)

بعبارة أخرى ، لا تشتمل الايكولوجيا بهذا المعنى على الدراسات التي تعنى بالبيئة لذاتها كدراسات الأرصاد الجوية مثلاً

، كما أنها لا تشتمل على الدراسات التي تعنى بالتركيب البيولوجي للإنسان كالتشريح ، بل على العكس من ذلك تستوعب فقط الأجزاء التي تعنى بدراسة علاقة الإنسان بالبيئة.

ويتفق هذا التصور الرابع ، مع التعريف التقليدي للايكولوجيا كدراسة تعنى بالعلاقة المتبادلة بين الكائنات الحية وبيئاتها المختلفة

كما انه ينطوي على أساس عام تتفق عليه التصورات السابقة التي ناقشناها من قبل ، ليجعل من الايكولوجيا البشرية مدخلاً هامشياً أكثر اتساعاً للبحث والدراسة

ولقد دفع إلى هذا التصور ما بذل في مختلف التخصصات الأكاديمية المعروفة من محاولات لانتزاع أجزاء مختلفة من مجال البحث الايكولوجي :-

١-فاختصت الجغرافيا البشرية- تقليديا بذلك الجزء الذي يعنى بدراسة العلاقات المباشرة والمتبادلة بين الأفراد والجماعات وبيئاتهم الفيزيقية

٢-، بينما ركز علماء الاجتماع اهتمامهم على علاقات الإنسان بالانسان من حيث هي متأثرة وبطريق غير مباشر بتدخل البيئة الخارجية ،

٣-هذا في الوقت الذي حاول فيه علماء البيولوجيا تطبيق المفاهيم العامة وأساليب البحث المستخدمة في ايكولوجيا النبات والحيوان على دراسة الإنسان على نحو مباشر

وبمقدورنا أن نعزي هذا الاضطراب والغموض الذي ارتبط بالتراث الايكولوجي إلى ما ذهب إليه الكثير من الباحثين في الجغرافيا والبيولوجيا وعلم الإجتماع ، من اعتبار الجانب الجغرافي أو البيولوجي أو الإجتماعي من الايكولوجيا

ولعل السبيل الوحيد أمامنا ، لتجنب مثل هذا الغموض هو أن نعيد النظر في المسميات التي أطلقت وبطريقة تقليدية على الايكولوجيا وجوانبها المختلفة ، وان نعيد وضع الحدود التي تفصلها وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى.

تتمثل ابسط طريقة للنظرة إلى المجتمع المحلي في اعتباره تجمع عددي إحصائي من السكان ، وقد ينظر إلى سكان أي مجتمع على أنهم جمع من وحدات محددة ومتميزة ، تكشف وباستمرار عن اتجاهات للتغير يمكن تحليلها والتنبؤ بها بطريقة حسابية رياضية وتمثل هذه النظرة وذلك التحليل مدخلاً من مداخل دراسة المجتمع المحلي ، يعرف (بالمدخل الديمجرافي)

ومن ثم فالديموجرافيا- أو علم السكان – هي ببساطة عبارة عن التحليل العددي أو الكمي لأوضاع السكان الآدميين وحركاتهم والتي تسجلها وترصدها قوائم التعددات وسجلات العمليات الحيوية

أن التحليل الديموجرافي عادة ما ينحصر في دراسة الظروف المحيطة بحياة المجتمع من خلال التحليل المتعمق لعمليات الولادة والوفيات والهجرة

ولا تحتاج مهمة تعيين الحدود الفاصلة بين الديموجرافيا والايكولوجيا البشرية لجهد كبير

إذ على الرغم من أن كلاهما يدرس المجتمع المحلي ، إلا أن الديموجرافيا تعنى بدراسة العمليات الحيوية لسكان المجتمع بينما تهتم الايكولوجيا بالتنظيم المعيشي للسكان الذين يكونون هذا المجتمع

وتمثل علاقة الإنسان وأوجه نشاطه بظروف البيئة الطبيعية ، كما نعرف الموضوع المحوري في الجغرافيا

ولقد كان لتأكيد الجغرافيا البشرية لأثر البيئة على الإنسان بداياته الأولى – كما اشرنا – في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ذلك بنشر كتاب فردريك راتزل Friedrick Razel (الجغرافيا البشرية)

وقد تبنت الغالبية العظمى من علماء الجغرافيا البشرية تصوراً أكثر اعتدالاً لمهامهم وذلك بتأثير كتاب بول فيدال دي لابلاش pul Vidal De وقد تمثل ذلك التصور في محاول اكتشاف الطريقة التي تؤثر بها العوامل الجغرافية في السلوك الإنساني، وتحديد المدى الذي يصل إليه حدود هذا التأثير ،

ومع ذلك فقد واجهت علماء الجغرافيا حقيقة أن الإنسان يكشف عن استجابات خاصة ومتميزة لبيئته الطبيعية من خلال طرق ووسائل (يتعارف عليها) ويكتسبها ، لا من خلال طرق ووسائل إلية بحتة .

من ثم اضطروا إلى (قلب الصورة) الأصلية لمشكلة بحثهم بمعنى انه بدلاً من اهتمامهم بدراسة اثر البيئة في الإنسان والسلوك الإنساني اخذوا يميلون إلى تحديد مجال الجغرافيا البشرية في دراسة تكيف الإنسان وسبل توافقه لبيئته الطبيعية

فعلى الرغم من اهتمام الجغرافي المتزايد بالظاهرة الإنسانية إلا انه لا يستطيع أن يتجرد عن انشغاله الأولي بالبيئة الطبيعية ، فالإنسان يشغل حيزاً من سطح الأرض ، وهو بالتالي يمثل جزءاً من الوسط الطبيعي الذي يعني به الجغرافي

ومن ثم كان كشف الارتباط القائم بين السكان الآدميين والعناصر الأخرى التي يتكون منها هذا الوسط الطبيعي ، مهمة أساسية من مهام البحث في الجغرافيا البشرية غير أن الإنسان لا يشغل ، فحسب ، حيزا من سطح الأرض بل قد يغير من شكله ، ذلك من خلال التعديلات التي يدخلها في الوسط الطبيعي : كإزالة الغابات ، وزراعة الحقول ، وشق الترع ، وتشييد المباني ، وتمهيد الطرق ، وإقامة السدود والخزانات ، وما شابه ذلك

، وفي هذا الصدد تختلف الايكولوجيا عن الجغرافيا البشرية : فالجغرافيا في دراستها للنشاط البشري لا تهتم إلا فيما ندر- بالعلاقات المتبادلة بين الناس

أما الايكولوجيا فهي باهتمامها بعلاقة الإنسان ببيئته الطبيعية تركز على الاعتماد الإنساني المتبادل الذي يطور استجابات السكان لمواطنهم المختلفة ، بعبارة أخرى في الوقت الذي تنظر فيه الجغرافيا إلى توافق الإنسان من زاوية التعديلات التي يحدثها الإنسان على سطح الأرض أو (الوسط الطبيعي) من حوله .

تقدم الايكولوجيا تحليلاً مفصلاً لتنظيم العلاقات التي تتضمنها عمليات التوافق البيئي

وثمة نقطة أخرى للتمييز بين العلمين هي أن الجغرافيا تقدم وصفاً للظواهر والتوافقات كما هي عليه في الوقت الحاضر لأنها تهتم (بالتوزيع) أو (التركيب) أكثر من اهتمامها(بالعملية التطورية) أما الايكولوجيا فهي أكثر دينامية ، تأخذ على عاتقها مهمة وصف وتفسير العملية التطورية ، إلى جانب وصف شكل التوافق البيئي القائم ،

أضف إلى ذلك أن كلاً من الجغرافيا والايكولوجيا يمثلان مدخلين مختلفين لدراسة علاقة الإنسان بالبيئة ، حيث تقدم الجغرافيا تحليلاً لهذه العلاقة من خلال البيئة في مقابل ما تقدمه الايكولوجيا من تحليل يستند على الكائن الحي كنقطة انطلاق للبحث والدراسة

وقد يبدو الخط الفاصل للايكولوجيا البشرية عن علم الاقتصاد ، اقل وضوحا عن الخطوط التي تفصلها عن الجغرافيا ، والديموجرافيا وعلم الاجتماع

، فقد توصف الايكولوجيا على أنها مجرد امتداد طبيعي للاقتصاد ، خاصة أن علم الاقتصاد لا يستوعب كل مجالات الحياة الاجتماعية :

١-إذ لا يعنى مثلا بدراسة الجوانب غير المالية للعلاقات الاقتصادية

٢-كما لا يتناول العلاقات الاجتماعية التي لا تجد تعبيرا لها في نظام الأثمان والفائدة

٣-ولا يهتم كذلك بدراسة النظم والمنظمات التي لا تخضع لمبدأ الربح والمنفعة كالأسرة مثلاً ،

ولذلك ينظر إلى الايكولوجيا البشرية على أنها امتداد للاقتصاديات التي تقع فيما وراء المجال المحدود والمعترف به للعلوم الاقتصادية ومع ذلك فانه من الخطأ أن نزعم أن الايكولوجيا فرع من الاقتصاد ومع أن المصطلحين Economy, Ecology قد اشتقا من أصل واحد مشترك ، إلا أن لكل من العلمين مجاله ومباحثه ومداخل دراسته الخاصة ،

ولعل التمييز الذي يمكن أن نسوقه بين العلمين هنا ، أن الاقتصاد يهتم بكفاءة العلاقات المطلوبة في أداء مهمة معينة في الإنتاج ، وبالتغيرات التي تطرأ على هذه العلاقات الإنتاجية مستخدما(وحدات التكاليف) مقياساً أساسياً

ومن ثم يمثل الاقتصاد وجهة نظر ترتبط بتخطيط المشروعات أو إدارة الإنتاج أو توزيع السلع والخدمات

أما الايكولوجيا البشرية فتعنى بدراسة أشكال وأنماط علاقات المعيشة بين الأفراد ، وتطور هذه الأنماط والعوامل التي تؤثر في هذا التطور ، ومن ثم فهي تمثل وجهة نظر الأفراد والجماعات التي تبحث عن وضع معين في نسق متطور من العلاقات.

وأخيراً فانه إزاء ما كشف عنه التصورات السابقة للايكولوجيا البشرية من محاولات صريحة لاستدماجها في علوم أخرى كالبيولوجيا والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد ثم إزاء ما حاولنا أن نقدمه من جهد لتمييز مجال البحث الايكولوجي عن العلوم الإنسانية المختلفة ، يصبح بمقدرونا أن نعتبر الايكولوجيا البشرية مجالاً واحداً متميزاً للدراسة ينقسم بدوره إلى ثلاثة فروع أساسية جغرافية وبيولوجية وسوسيولوجية

ومن الممكن في نظرنا أن نطلق على الجانب الجغرافي اسم (الجغرافيا البشرية)

أما الجانب البيولوجي ، فنعتقد انه إلى أن لم يتوصل علماء البيولوجيا لتسمية خاصة لمجال بحثهم ، يكفي أن نطلق عليه (الايكولوجيا العامة مطبقة على الإنسان)

في الوقت الذي نطلق فيه اسم(الايكولوجيا الإجتماعية) على الجانب السوسيولوجي في الدراسة الايكولوجية

وتحقق هذه التسمية التي نقترحها عدة مزايا أهمها:

١-يؤكد استخدام مصطلح (الايكولوجيا البشرية) بهذا المعنى الواسع – بل ويحتفظ- بتلك النقطة المحورية التي دارت حولها مختلف التصورات التي عرضناها من قبل

٢-أن محاولة تمييز مجالات الدراسة الايكولوجية بمسميات خاصة أمر لا يمكن الدارس في أي منها من تحديد مجال بحثه بدقة وأحكام

٣-يتيح تصورنا السابق إمكانية اكبر للإفادة المتبادلة بين الفروع المختلفة للدراسة الايكولوجية ، كما يتيح للدرس في أي مجال متخصص منها فرصة التعرف على العلاقات التي تربط مجال بحثه وتخصصه بالمجالات الأخرى للدراسة الايكولوجية ككل واحد متكامل

<u>حدود استخدام المدخل الايكولوجي في العلوم الإنسانية :-</u>

أشرنا إلى إسهام بعض العلوم الإنسانية في تحديد البدايات الأولى لتطور المدخل الايكولوجي ، وعرضنا لبعض المحاولات التي بذلت من جانب المشتغلين بهذه العلوم لاستدماج الايكولوجيا، كمبحث من مباحثها الأساسية ، وناقشنا أيضاً المبررات التي استندت إليها هذه المحاولات ، ثم حاولنا بعد ذلك أن نكشف أهم الملامح البارزة التي تميز المدخل الايكولوجي عن ما عداه من مداخل لدراسة الحياة والبيئة والإنسان ، غير انه في محاولتنا هذه لم يغب عن ذهننا حقيقة أن المدخل الايكولوجي يختلف عن ما عداه من مداخل لدراسة الحياة والبيئة والإنسان

نحاول في هذا الجزء أن نوضح حدود استخدام المدخل الايكولوجي في مجال الدراسات الإنسانية وذلك على النحو التالي :

١-في مجال علم الاقتصاد

يكشف استعراض التطور التاريخي للمدخل الايكولوجي ولعلم الاقتصاد معا ، عن ان ثمة اعتماداً تصورياً متبادلاً بين العلمين : فلقد اقتبس داروين أهم أفكاره الايكولوجية من عالم الاقتصاد المشهور مالتوس ، فكلاهما يؤكد فكرة الصراع من اجل البقاء والوجود

كما نجد باحثاً مثل ويلز H.Wells يعرف الايكولوجيا في ضوء الاقتصاد ، ويعرف الاقتصاد في ضوء الايكولوجيا، فيذهب إلى أن (الايكولوجيا امتداد للاقتصاد على مستوى العالم الحيوي كله ، وان الاقتصاد مجرد فرع من الايكولوجيا البشرية ، أو هو دراسة متخصصة لايكولوجيا المجتمع المحلي الذي نعيش فيه)

يبدأ استخدام المدخل الايكولوجي في الاقتصاد مع ظهور أعمال عالم الاقتصاد كينيث بولدونج Kenneth Boulding حتى انه فيما عدا هذه الأعمال ظل علم الاقتصاد بعيداً إلى حد كبير عن استخدام هذا المدخل فالحق لم يكن اهتمام أو معرفة الاقتصاديين بالايكولوجيا كبيرا ، كما لم يتابع بولدنج في اتجاهه هذا إلا نفر قليل من علماء الاقتصاد مثل س. وانتروب Ciriacy wantrup S.V. وروث ماك Ruth mack وغيرهما ممن تركزت أعمالهم في محاولة إيجاد بعض التوازن بين الايكولوجيا والاقتصاد، وتحديد المجالات التي تحقق التقاءهما وتكاملهما.

وقد يبدو هذا التوازن أكثر وضوحاً في نظر بولدنج ورفاقه ، في أن مصطلح Economy, Ecology قد اشتقا من أصل يوناني واحد هو Oikos الذي يقابل Eco في كل منهما ، والذي يشير إلى المنزل House أو المعيشة Household

كذلك يشير المقطع Logos في (Ecology) إلى الكلمة أو الحديث Diseourse أو التقرير Account بينما يشير المقطع Nemem في (Economy) إلى الإدارة ، ومن ثم فان كلا من المصطلحين يعني أساسا (بمكان عيش واحد The same Household) وهو سطح الأرض

ويتابع بولدنج نفس الفكرة ، فيذهب إلى انه (بنفس القدر الذي تهتم فيه الايكولوجيا ببحث الطرق التي من خلالها تستطيع الكائنات الحية الطبيعية- كالنبات والحيوان – كسب عيشها والحصول على كل ما يلزم بقائها وتطورها من غذاء ، فان الاقتصاد يهتم أيضاً ببحث الوسائل التي تمكن الإنسان من الحصول على مقومات عيشه ، (كما يقرر أن العلمين يهتمان بما هو ابعد من ذلك أي بدراسة كيف أن التفاعل بين الأفراد والأنواع والأجناس يكون في النهاية نسقاً كلياً متكاملاً ومتوازناً .

ويؤكد بولدنج في أخر أعماله على فكرة توازن النسق الكلي في كل من الايكولوجيا والاقتصاد فنراه يكشف عما بين نوعي التوازن من مماثلة ، موضحا كيف أن الرابطة الأساسية بين العمليات الاقتصادية والايكولوجية تتمثل فيما اسماه بالعملية الكلية لتأيض النسق : فالتأيض في الكائن الحي يماثل في نظره عملية الإنتاج في الاقتصاد ، إذ أن العملية الأولى ليست سوى تحول المدخلات inputs (وهي تقابل المادة الخام) إلى مخرجات outputs (وهي تقابل السلع أو المنتجات) وفقاً لعلاقة وظيفية محددة بينهما

وفي مقالة أخرى حدد بولدنج عدة تشابهات أساسية بين الايكولوجيا والاقتصاد حيث يرى أن كلاهما لا يهتم بالفرد لذاته بل يهتم بالفرد كعضو في نوع أو جنس معين ، وكما أن سكان أي بيئة يكونون جنساً من الأجناس إذا كان الأفراد متماثلون فيما بينهم ايكولوجيا ، فانه من الممكن أن ننظر إلى عدد من السلع على انه امتداد

بسيط لأنواع أو أجناس طبيعية اقتصادياً ، فالسيارة والأحذية ورغيف العيش تمثل في نظره أفراداً في أجناس معينة ، تماماً مثلما تكون الدواب والحيوانات بل والإنسان

ويتمثل ثاني وجوه الشبه بين الايكولوجيا والاقتصاد في نظر بولدنج ، في أن كلاهما يستخدم مفهوم (التوازن العام) فتوازن انساق الإنتاج والعرض والطلب والأثمان ، يماثل في وجوه كثيرة نسق التوازن الايكولوجي في علاقة السكان بالبيئة

كذلك فان ارتكاز توازن النسق الايكولوجي والنسق الاقتصادي على مبدأ التبادل بين مختلف الأفراد والأنواع ، يمثل وجها أخر من وجوه التشابه بين الاقتصاد والايكولوجي

وتتأكد وجوه الشبه بين الاقتصاد والايكولوجيا أكثر فأكثر – على حد تعبير بولدنج- إذا وضعت في سياق مشكلة محورية واحدة للعلمين فمن المعروف أن المشكل الأساسية في كلا من الاقتصاد والايكولوجيا هي كيفية توزيع الموارد البيئية المتاحة على الأنواع المختلفة من مستخدمي هذه الموارد

أن هذه العملية – عملية التوزيع- يمكن أن ننظر إليها على أنها (مباراة) سواء في الايكولوجيا أو الاقتصاد فيها يسلك كل من الكائن الحي (بالمعنى الايكولوجي) ورجل الاقتصاد بطريقة يمكن توقعها والتنبؤ بها

إذ من المتصور أن يتابع المستهلك إستراتيجية يحاول من خلالها أن يزيد إلى أقصى درجة ممكنة في وظيفة الاستخدام لديه ، بينما يحاول المنتج أن يزيد إلى أقصى حد ممكن من أرباحه (اقتصادياً) أو نمو (ايكولوجيا)

وفي مثل هذه المباراة الاقتصادية الايكولوجية المبسطة نجد أن أطرافها يعملون داخل ضغوط معينة يمثلها في الاقتصاد مسائل الميزانية والطلب والتكنولوجيا .. الخ ، وتمثلها في الايكولوجيا مسائل الطاقة (الميزانية) والأعداد (الطلب) والتوافق (التكنولوجيا)

كما أن في كل حالة نجد أن كلاً من المنتج والمستهلك أكثر تقيداً بدوافع خصمه ، حتى انه بعد فترة من التوافق المتبادل(التعاقب أو الإحلال) يجد كل منهما انه من الصعب إصلاح ما بينهما من أوضاع ومن ثم يتحقق التوازن.

وعلى أية حال فان ما ذكرناه من أمثلة سابقة لتبني المدخل الايكولوجي في الاقتصاد ، لا تحدد بالضبط بداية ارتباط الاقتصاد بالايكولوجيا ، بل كانت مجرد أمثلة حديثة لموقف الاقتصاديين المعاصرين من الدراسة الايكولوجية ، وقد يبدو لنا أن هؤلاء العلماء لم يكونوا على وعي تام بالدور المبكر الذي لعبته الدراسات الاقتصادية في تطوير الايكولوجيا البشرية خاصة وان كل ما قدموه من مماثلات ومقارانات وارتباطات قد اقتصر على علاقة الاقتصاد (بالايكولوجيا الحيوية أو البيولوجية)

ومع ذلك فبمقدورنا أن نقرر أن الاستخدام المتبادل للمفاهيم الايكولوجية والاقتصادية يرجع – وان كان في جانب واحد فقط – إلى أول كتاب قدمه بارك بالاشتراك مع يرجس ، والى أعمال بارك المبكرة ، وأعمال ماكينزي ، وغيرهم من رواد المدخل الايكولوجي التقليدي أو الكلاسيكي

حيث نجد بارك مثلا يلخص اهتمام الايكولوجي بدراسة التغير في بحث دراسة تنقلات الناس والصناعات والسلع والتغيرات التي تطرأ على مواقع الأفراد ومهنهم والتعديلات التي تحدث بين حين وأخر في انساق تقسيم العمل القائمة

كذلك نجد أن ماكينزي يقرر أن (بناء المجتمع ونموه ها في الحقيقة مؤشرات للمسافة الايكولوجية التي يفسرها مفهوم (تكاليف الوقت Time-cost concept) أو أنهما استجابة لمسافة التنقلات التي تحدث في إطار الأشخاص والسلع

٢-في مجال الجغرافيا

وكما تمثلت المشكلة المحورية في الايكولوجيا البشرية المعاصرة في محاولة فهم كيف ينظم السكان أنفسهم خلال عمليات تكيفهم لبيئة محدودة ومتغيرة باستمرار ، دارت المشكلة الأساسية التي عنيت الجغرافيا المعاصرة وبخاصة الجغرافيا الحضرية بدراستها ، حول كيف ولماذا تعمل العوامل والعمليات المكانية على الإبقاء على البيئة الحضرية أو على تغييرها أحياناٍ؟ وكيف يؤثر البناء المكاني في السلوك البشري ؟

وفي هذا الصدد فهمت البيئة بمعنى النسق الايكولوجي أي كنسق لتفاعل وظيفي لكائنات حية ، مع بيئة فيزيقية وبيولوجية وثقافية ذات تأثير فعال ، وفي هذا الصدد أيضا ، لم تدرس الأنساق الايكولوجية من منظور استياتيكي ثابت لشكلها المكاني أو تمايزها المساحي في ضوء خصائص المكان والموقع والإقليم فحسب بل عولجت هذه الأنساق من منظور التفاعل والتنظيم المكاني ، وبخاصة في ضوء تنميطها وتكوينها المكاني في شكل سلاسل وانحدارات ومراكز وأطراف وحواجز وحدود وما شابه ذلك

كما امتد اهتمام الجغرافيا الحضرية المعاصرة إلى محاولة فهم كيف يسهم السلوك المكاني – أي أنماط السلوك التي تنجم عن التكيف لشروط البيئة أو لتغيرها- في تحديد عمليات الاستخدام المحتمل للمكان (التي تعمل على تدعيم حالة الثبات في البيئة) ، أو في تحديد عمليات تشكيل المكان (التي تؤدي إلى حدوث تغيرات تدريجية في البيئة) أو في عمليات تحويل المكان (التي تؤدي إلى تغير جذري للبيئة) وتوضح هذه الاهتمامات الحديثة للجغرافيا أن ثمة وجه للتقارب والالتقاء بين المدخل الجغرافي والايكولوجي والسوسيولوجي في دراسة المجتمع المحلي الحضري بصفة خاصة .

وفي الأيام الأخيرة نجد أن علماء الجغرافيا يعملون على إيجاد نوع من التكامل بين مفهوم (الإقليم Region) والمفاهيم الايكولوجية الأخرى حتى أن بعضهم من أمثال ديكنسون Dickinson يعتقد أن بالإمكان استخدام الأنساق الايكولوجية كنماذج في الجغرافيا الإقليمية.

غير أن محاولة تطبيق أفكار الايكولوجيا ومفاهيمها في مجال البحث الجغرافي ليست بالمحاولة الحديثة

ومع ذلك فقد أدى الخوف من الوقوع في أخطار الحتمية إلى إهمال واضح للمفاهيم الايكولوجية في الجغرافيا لمدة تزيد عن نصف قرن تقريباً حتى جاء زيلنسكي وبعض الجغرافيين المعاصرين ، فاعترفوا بان النسق الايكولوجي هو أكثر اكتشاف العصر الحديث أهمية ، وان محور الاهتمام في الجغرافيا هو دراسة الايكولوجيا البشرية في مجالات متخصصة، وانه من الأهمية بمكان في نظرهم أن ننظر إلى حياة الشعوب والمجتمعات في ضوء علاقاتها ببيئاتها المختلفة كمطلب ضروري لفهم مشكلاتها.

كذلك نجد أن ثمة تيار من الفكر الايكولوجي كان موجودا في الجغرافيا حتى قبل محاولة باروز السابقة وبعدها ، تمثل ذلك في المداخل التي تبناها كل من سيمبل Semple وسايور Sauer ومع ذلك فقد اعتبرت هذه المداخل نوعا من الحتميات البيئوية(بالنسبة لسيمبل) أو الثقافية (بالنسبة لسيور) وسرعان ما وجهت إليها الانتقادات اللاذعة ، مثال ذلك ما ذهب إليه انجلش English من كلا من المدخلين يشتملان على جانب نشط وفعال ، وأخر ساكن خامل ، في تحليلهما لعلاقة الإنسان بالبيئة : فالبيئويون يرون أن هناك تأثيراً فعالاً ومباشراً من البيئة على الإنسان ، بينما يرى الحتميون الثقافيون اتجاها عكسياً في نفس العلاقة ، أي من الإنسان على البيئة) .

وبغض النظر عن ما وقعت فيه هذه المحاولات من أخطاء ، وبغض النظر عن وجاهة الانتقادات التي وجهت إليها ، فان ما يعنينا هنا أنها قد احتوت على قدر من الاهتمام بتطبيق المدخل الايكولوجي خاصة في تفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة وتوضيح علاقة التفاعل بينهما.

اهم التعريفات التي نقدمها هو تعريف ثورنوات ، إذ لم يكن ثورنوات عالما ايكولوجيا ، بل كان احد المشتغلين في مجال الجغرافيا الطبيعية ، ومع ذلك كان تعريفه للايكولوجيا ولا يزال أكثر التعريفات قبولاً لفترة تزيد على الثلاثين سنة ،

في تعريفه للايكولوجيا ، فقد استند فيه على مفهوم (المجتمع المحلي) فذهب إلى أن اهتمامها يوجه أساسا نحو تطور المجتمعات الإنسانية ، وعلاقتها المتبادلة بالبيئة الكلية المحيطة بها.

وتعد العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن بمثابة إحياء للمدخل الايكولوجي في مجال البحث الجغرافي ، فقد شهدت ظهور عدد من الأعمال الجغرافية الجادة التي أكدت ضرورة تطبيق المفاهيم الايكولوجية وبخاصة مفهوم النسق الايكولوجي والمجتمع المحلي والتفاعل .. الخ

٣- في مجال الدراسات السيكولوجية

تعنى محاولة استعراض تطور استخدام المدخل الايكولوجي في علم النفس في الحقيقة محاول لتأريخ ما حدث في مجال الدراسات السيكولوجية من ثورة ، تمثلت في العمل خارج المعمل بتجاربه الموجهة على السلوك الانساني أي الانتقال من مجال العمل المعملي ، الى مجال الملاحظة المباشرة للسلوك في ظروف عادية طبيعية وغير موجهة او مشروطة .

وتعد دراسات روجر باركر Roger Barker وهربرت رايت Herbert Wright عن اطفال المدينة في (الميدويست Midwest بولاية كنساس Kansas والتي بدات سنة ١٩٤٧ محاولات رائدة لتطبيق المدخل الايكولوجي في مجال علم النفس وبالتالي نقطة البداية الاولى في هذه الثورة المنهجية

كما عرف استخدام المدخل الايكولوجي في هذا المجال باسماء عديدة منها (الايكولوجيا السيكولوجية) او علم النفس البيئوي

الا ان التسمية التي حظيت بالقبول والانتشار كانت تلك التي وضعها باركر وزميله رايت (علم النفس الايكولوجي) حتى ان بعض المشتغلين بالدراسات السيكولوجية يرون ان هذا الفرع الجديد من علم النفس قد نما فقط في اوسكالوزا Oska Loosa حيث يوجد مركز البحوث الميدانية التابع لجامعة كنساس الامريكية

ان اهم ما يميز المدخل المعاصر في علم النفس – على حد تعبير باركر- ذلك التركيز على (تنوعات السلوك الفردي الذي يحدث على نحو طبيعي والسياقات التي تحيط بهذا السلوك احاطة طبيعية) ، كما ان اهم ما يركز عليه التوجيه الايكولوجي في علم النفس هو تحليل مجرى السلوك الطبيعي المتعدد المتغيرات كما يحدث في البيئة على نحو طبيعي غير معملي

هذا في مقابل الاهتمام التقليدي لعلم النفس بالفروق الفردية من خلال تحديد وقياس السلوك الفردي الثابت تحت ظروف ثابتة ومفروضة ، ومع ذلك لم يكن الهدف من استخدام المدخل الايكولوجي في علم النفس الاقلال من اهمية العمل المعملي التجريبي ، بل كان مجرد محاولة للامتداد بالبحث والتحلل خارج حدود المعمل .

وفي هذا الصدد يقرر ويلمز E.P.Willems انه لا يمكن التوصل في علم النفس الى مقياس لمعرفة كيف تتفق نتائجه مع العالم الواقعي او مع تلك البيئة الواقعة خارج حدود المعمل ، دون توجيه ايكولوجي لدراسة السلوك الانساني

وفي نفس الاتجاه ارتاب سيلز S.B.Sells في كفاءة المعالجة العلمية لبعض جوانب السلوك الانساني ، مؤكدا افضلية الملاحظات والتجارب الحقلية ذات المتغيرات المتعددة، على التجربةالمعملية ذات البعد او المتغير الواحد من ناحية، وضرورة استخدام المدخل الايكولوجي لمعرفة تاثير العالم الواقعي على انماط السلوك البشري.

ومرة اخرى يؤكد استخدام المدخل الايكولوجي في نطاق الدراسات السيكولوجية

قد يواجه هذا الاستخدام ببعض الصعوبات التي ترتبط بتسجيل السلوك في ظل تعقيدات ظروف البيئة الا انه من الممكن في ضوء استخدام هذا المدخل ان نتوصل على حد تعبير سيلز الى تحديد ما لتاثير المتغيرات البيئوية من دور في تنوع انماط السلوك الذي تفسره

ان المشكلة الحقيقية في ما اسماه باركر بعلم النفس الايكولوجي هي تحديد وبحث دور الدوافع غير السيكولوجية في السلوك الانساني ،

وهو يقصد بالدوافع غير السيكولوجية البيئة الايكولوجية

وتتحدد هذه البيئة الايكولوجية في نظره من مجموعة الظواهر التي تحدث حدوثا طبيعيا ، والتي تتميز بوقوعها خارج جسم الانسان من ناحية ، وقدرتها على الربط بين افعاله وتصرفاته الجزئية من ناحية ثانية ، ثم بعملها وفقا لقوانين لا تتطابق مع القوانين التي تحكم سلوكياته وتصرفاته الجزئية

وتفسير ذلك ان للظواهر السلوكية اليومية اتجاها للتركيز حول مجموعات من الانشطة والاماكن ، وميلا للتجمع في تجمعات او مجموعات منتظمة ووحدات محددة من البيئة الخارجية ، لذلك نجد الاشخاص – على حد تعبيره- بواجهون ببيئات متعددة البناء والانماط ، كما نجد البيئة تأخذ شكل وحدات مختلفة ومتنوعة هذه الوحدات تمثل في نظره القاعدة السلوكية Behavior setting للأفراد .

ولعل من أهم الصعوبات التي تواجه علم النفس الايكولوجي ، اختلاف التفسيرات التي تطرح لنفس المفاهيم وتعارضها أحياناً ،

والمثال الذي نسوقه في هذا الصدد، الاستخدام المختلف لمفهوم (البيئة الفيزيقية والبيئة الايكولوجية) فالبيئة الفيزيقية تعنى عند معظم الايكولوجيين المقومات الفيزيقية للعالم الطبيعي كالتربة والمناخ والتضاريس .. الخ ، بينما تعنى عند علماء النفس الايكولوجيين الحضور او التمثل الفيزيقي للأشياء كالحوائط والكراسي والمناضد والافراد الاخرين

نماذج لأسئلة المحاضرة :-

تعتبر الايكولوجيا عند عدد من المفكرين تركيب جامع للعلوم الانسانية / ناقش

تعتبر الايكولوجيا البشرية عند عدد من المفكرين تخصص مطابق للجغرافيا البشرية /ناقش

وجد اعتبار الايكولوجيا البشرية فرعاً من علم الاجتماع قبولاً واسعاً لدى عدد من مفكري علم الاجتماع

س/ناقش ما قدموه من أدلة

بعض المفكرين يعتقد أن الايكولوجيا تقع في مفترق طرق /ناقش

الايكولوجيا البشرية عند (بيوز)قد تدرس البيئة او قد تهتم بدراسة الانسان لكنها في الغالب تهتم بـ:

البيئة والوظيفة والكائن

النفس والوظيفة والكائن

السكان والبناء والوظيفة

الاقتصاد والبناء والكائن

Done